و هي درجة حرارة عالية جدا بالنسبة لموسكو, و كذلك السفير الايراني الجالس قبالتي في حلة رسميه سوداء. و السهل منبسط تتناثر فيه شجيرات متباعدة ذات قمم أشبه بالمظلات. و الجبال ترتفع عن بعد رمادية صفراء. تلك ليست المرة الأولى التي ينصب فيها مخيم السلطان هنا, و كان من المعتاد أن يتوقف السلطان في سياق جولاته الدورية في ربوع البلاد ليستقبل المواطنين و يخطب فيهم و يتجاذب أطراف الحديث مع البعض منهم. حيث يصلون الى هنا في غضون ثلاث ساعات يمضونها و سياراتهم تنهب الطريق ارائع الذي يشق سلسلة الجبال الى الجهة الثانية, و لعل هذه البقاع تدفع المرء الى التأمل و التفكير, التي ترد عن طريقها ملايين الاشارات التي تحمل معلومات و أخبار عن العالم الكبير الذي يموج بالأحداث و تمكن المسئولين من جس نبض الحياة المستقرة في البلاد. و عبر شبكة أنابيب النفط المتشبعه التي تشكل الدورة الدموية لاقتصاد السلطنة تضخ الملايين من براميل الوقود السائل و عبر الأسلاك النحاسية تنساب في صمت مئات الآلاف من الكيلوواط الطاقة الكهربائية التي تمنح القوة و الحيوية للآلات و المضخات, و هي تزود المساكن و الحقول بالحياة, و تقف أسراب الطائرات و الدبابات و المدرعات المعتادة في صفوفها على أهبة الاستعداد و قد تحولت الى قبضة متينة تجمعها ارادة واحدة. ان كل امكانات الدولة العصرية اليوم طوع بنان رجل واحد يجلس متأملا متربعا على بساط في خيمته الفسيحة الحمراء. و خطط استخدام شبكة الانترنت على أوسع نطاق, و مد أنبوب الغاز في قاع المحيط الهندي. و اكتست صفحة السماء في الغرب باللون الذي شبهه الكاتب كنوت هامسون بلون شريحة السلمون. التي تبدو كأن الرماد قد نثر عليها, و كانت السماء مزينه بألوانها الشبيهة بانعكاس لهيب الموقد على النصال و لمعة الذهب السحرية على أساور النساء. وخيل الى من كلامه السريع غير المفهوم أن أحدا من الجالسين سيدعى للمثول أمام السلطان. سيارة الجيب تنزلق ببطء على الدرب المتموج غير المعبد و تلقي بأضواء مصباحيها نورا على الفضاء الصخري المكسو بشجيرات متباعدة. لكنها واصلت طريقها وسط الظلام مهتدية بأنوار مصابيح أخرى تومض من بعيد. شد السلطان يدي بود. و انطبعت على شفتيه ابتسامة خفيفة. ما أبعد الشبه بينه و بين مئات الصور الفوتوغرافية التي كنت أحدق فيها بانتباه على صفحات الكتب و المجلات و الجرائد. انه أكثر فتوة من كل تلك الصور بعشر سنوات في أقل تقدير. و حضور البديهة و لمع العينين و نبل الايماء و الالتفاتة و الايحاء. جلسنا على مقعدين خفيفين. وليس بيننا سوى طاولة مستديرة صغيرة. أثناء الحديث كان السلطان يومئ برأسه و يشير بيده اليمنى بين الفينة و الفينة. لكنها تنطوي على طاقة خفية موحية. و في هيئة جلوسه و أسلوب كلامه تعبيرات ابتسامته ألف دليل على منتهى التحرر و مطلق الحرية. ولا أصدق من كلمتي بساطة الملوك للتعبير عن خاصية هذا الأسلوب و هذا السلوك. فلا يجلس على هذا النحو الا الرجل الذي تربع أجداده على العرش مائتي عام. و لم أكن قد رأيت مثل هذا القوام الا على جدران معابد مصر. بهذه الصورة خلد نحاتون مجهولون كل الفراعنة من ملوك الأسر التي حكمت مصر آلاف السنين. انتقل الحديث بشكل غير ملحوظ من سني الطفولة الى الفترة التي أمضأها صاحب الجلالة في الدراسة و الخدمة العسكرية, الا أن هذه المعلومات لا تقاس بمعيار الكم. فالأهم هو أن أكداس المعلومات التي استقيتها من الكتب و الجرائد و المقابلات و المصادر الأخرى أخذت تتجمع و تتركب و تستقيم في منظومة قويمة واحدة. وجدت في لهجة السلطان الصادقة الدافئة حين كان يتكلم عن أعزائه من عمالقة الروح الانساني و عن القيم الأخلاقية و عن نوعية التعليم اكثر بكثير مما تتضمنه المجلدات المخصصة لسياسته في ميدان التربية و الثقافة. و الحقيقة أنني لا أستطيع أن أتصور سياسيا في روسيا أو في بلد آخر تكون المعاناة الموسيقية بالنسبة له على القدر نفسه من الأهمية شأن تقلبات اللعبة على رقعة الشطرنج العظمى التي بيادقها الجيش و رموز القدرة الاقتصادية. ذلك هو بالذات المظهر الواضح لتفوق النظام الملكي. فمن تحت الأكوام التي تعترض الطريق الى قمة السلطة في عالم الديمقراطية المعاصرة لن ينهض شخص يقيم نفس الوزن لمسائل صيانة الوئام الهش في الطبيعة و لمهمات تصعيد القدرات الحربية. و أترك هنا جانبا الصفوة الحاكمة التوتاليتارية الاستبدادية المكونة عادة من أناس تسلقوا القمة بفضل مهارتهم في الجمع بين عقل العبد و الطاغية و سلوكهما في وقت معا. لقد طرح السلطان قابوس مهمة تشذيب لوحة بلاده و تهذيب صورة دياره. وفي وثائق الحكومة العمانية المترجمة الى الانجليزية يطلق على هذه العملية مصطلح التجميل. و بالروسية يمكننا أن نستخدم كلمة التزيين أو حتى التزويق. و لكن شتان ما بين هذه المصطلحات الجميلة و النعوت الثقيلة التي شهدها عهد الاشتراكية في روسيا و سمع الكثير منها. و ليس بين المشتقات السوفييتية ما يشبه التشذيب و التهذيب. كل تلك المشتقات جاءت للدلالة على أمر ضروري و ملح في مرحلة تاريخية معينة, و عن سلب الانسان انسانيته و طغيان اللامبالاة على سلوكه. كان من أكثر الشعارات المزعجة المخطوفة فوق جميع مباني المحطات الكهربائية: الشيوعية هي السلطة السوفييتية مضافا اليها كهربة البلاد. و في عمان لا تصادف أية شعارات دعائية لا من هذا النوع ولا غيره. يجسد هدف التنمية في هذه البلاد لقلت: السلطنة هي

Summarized by © lakhasly.com

السلطة الوراثية مضافا اليها تجميل البلاد. فالشعب الذي يبني حياة جديدة على قاعدة أخلاقية عمرها ألف عام و يززيد لا يحتاج الى شحنات دعائية. التجميل في عمان يتجلى في كل شيء- في الترميم الواسع للآثار التاريخية الحصون و القلاع و المساجد و الأسواق و البناء العصري القائم على التراث المعماري و حتى في الجوقات السيمفونية و معارض الأزياء النسائية الوطنية. و في كل ما يجري على هذه الأصعدة يبدو تأثير ذوق السلطان, و رؤاه الراقية لقيمة الجمال شكلا و مضمونا. و حافظت على صورة المدينة الاسلامية الشرقية التقليدية تمكننا من الحكم على مدى حرص السلطان على التقاليد. الاسلام في عمان هو الأساس الروحي الذي تقوم عليه العصرنة و التجديد. أربعة آلاف مسجد شيد و رممت في ما مضى من سنوات حكم السلطان قابوس. و هم على القدر نفسه من التمسك بالتقاليد الوطنية. و لعلك لا تجد بلدا آخر في العالم العربي يحافظ الناس فيه لهذه الدرجة و لهذا الحد على الأعراف و العادات المعيشية المستمرة من الماضي العريق. و يحرص كل مسئول على أن يكون من مكونات الزي الذي يرتديه أثناء أدائه عمله خنجر كرمز لاستمرار التقاليد العمانية الأصيلة. في شخصية السلطان قابوس بن سعيد يقترن حب التقاليد و العادات الشعبية العمانية بالالمام العميق بآداب السلوك و الأخلاقيات في الأقطار الأخرى. و هو في كل مكان يشعر بالانشراح و الانطلاق و الحرية, و لجاذبيته السحرية و قدرته المدهشة على استمالة الآخرين بعد سياسي اضافة الى البعد الاجتماعي الشخصي الذي يميزه. واذا كانت زيارات رؤساء الدول الأجنبية حدثا جللا و أمرا خارقا للعادة بالنسبة للأقطار المجاورة لعمان, فأن تردد نجوم السياسة العالمية عليها يعتبر شيئا عاديا تماماو و لذلك فليس من قبيل المصادفة أن معظم زعماء العالم قد زاروا عمان خلال العقود الثلاثة الماضية. و الشاه محمد رضا بهلوي, و الرئيس الأمريكي بيل كلينتون. أما نواب الرئيس الأمريكي و مديرو أهم المنظمات الدولية و الأمير شارلز و الأميرة ديانا و غيرهم من كبار زوار مسقط فكان بوسعهم أن يكرروا قول الأمير السعودي خالد بن سلطان: أسعدني الحظ بالاجتماع الى السلطان قابوس, فكما هو شأنه من حيث الاطلاع الواسع للغاية على الأوضاع في عمان, فهذه الشخصية المبدعة اللامعة تضفي على كل ما تمارسه صفة من الابداع النافذ الخلاق. و عملياته الحربية الخاطفة التي تثير منتهى الاعجاب لجمعها بين الخفة و القدرة و الدقة و الجرأة, و كذلك خطواته و مرونته المدهشة التي تجسد فاعلية الحدس الدبلوماسي في السياسة الخارجية- كل ذلك يجسد طبيعة السلطان الثرية التواقة الى الفعل و العمل. يقال ان السلطان يستقل سيارته بين الفينة و الفينة في جولاته تفقدية خاصة في أرجاء العاصمة و ضواحيها فيزور المواقع التي يريد زيارتها, و يقوم بنفسه بتقويم عمل دوائر الخدمات المختصة بالتشجير و تنظيف الشوارع و ما الى ذلك. و من هذه الناحية يتقيد السسلطان بأقدم تقاليد الحكام المسلمين الذين كانوا ينشدون المعلومات غير المزوقة عن أحوال الشعب و ميوله و عن أمور الدولة و الأوضاع فيها. هكذا فعل هارون الرشيد في سالف الزمان و هكذا فعل الخليفة الفاطمي أبو على الحاكم بأمر الله في مصر, و هكذا فعل العاهل الاردني الراحل الحسين بن طلال عندما كان يمضي وقتا طويلا وراء مقود سيارة أجرة في طريق عمان- الزرقاء, كما فعل السلطان قابوس. فهو على مدار الثلاثين عاما الماضية زار في أغلب الظن كل قرية من قرى عمان, أو شد على يده في الأقل. و تحضرني هنا أبيات لأمير شعراء روسيا ألكسندر بوشكين في مدح القيصر بطرس الأكبر: أعين ممثلين عني, أما الآن. و يقول الشيء ذاته وزير ديوان البلاط السلطاني: توضع أمام صاحب الجلالة كميات هائلة من الوثائق. و ما يميز جلالته هو اتخاذ القرار المتزن. و لكن اذا اقتضى الحال الاستعجال فتعطى الأولوية المطلوبة. وزير ديوان البلاط يعرف أكثر من غيره حجم الأعمال و القضايا التي يبت فيها السلطان. فالديوان هو الذي يضع جدول أعمال رئيس الدولة بعد استلام الطلبات من الوزارات و الدول الأخرى. و بعد تعميم تلك المعلومات يعد الديوان برنامجا مستقبليا و آخر يوميا و يصادق عليهما السلطان. فالسلطان يقيم أكبر وزن للاتصالات الشخصية الانسانية, حتى انه يصحح الأخطاء اللغوية, و يرسم دوائر حول الكلمات غير المفهومة و يطلب توضيحها. و صاحب الجلالة يخرج من القصر يوميا تقريبا ليتحدث الى الناس, و تطرح الأسئلة هنا, و غالبا ما يتخذ صاحب الجلالة قرارات في شأن الشكاوى في الحال. و اذا اشتكى شخص من مسئول فأن تحقيقا صارما لا بد أن يجري في موضوع الشكوى. و أسلوب السلطان هذا يجعل الموظفين اكثر نشاطا و فاعلية فيحاولون ألا يترهلوا جالسين في مكاتبهم, بل يسعون هم أيضا الى المزيد من التفاهم مع الناس ليطلعوا على احتياجات الناس و يردوا بدقة على أسئلة السلطان اذا فاجأهم بها. عندما تحدثت الى العضوتين في مجلس الدولة علمت أن الأرامل او النساء الرقيقات الحال يطلبن المعونة من السلطان أحيانا, فيصدر تعليماته في الحال باعانتهن و يقوم الديوان بدفع المعونات النقدية. يتصل السلطان هاتفيا بالوزراء و كبار ضباط الجيش و المستشارين, فهو لا يكتفي بالاطلاع على التي تقدم اليه المواد المختارة و الغربلة. من الصعب و كذلك تحديد الأيام و الساعات المخصصة للراحة و الاستجمام. يقول وزير ديوان البلاط السلطاني أن وقت الراحة عند صاحب الجلالة ضيق للغاية, أنه في

Summarized by © lakhasly.com

اجازة, و لكن في الحقيقة أن عنده أيضا لقاءات و أعمالا متواصلة. و حتى عندما يسافر السلطان في رحلة غير رسمية الى أوروبا مرة في كل ثلاث أو أربع سنوات لا يتمكن من الابتعاد عن شؤون الدولة. و حتى عندما تعد الدوائر السلطانية المعنية تلك الزيارات لا يخلو الأمر من طلبات من السلطات هناك لتنظيم لقاءات مع جلالته. و لذا يقضي بعض الوقت بكل ارتياح في المرابط الرائعة التي شيدت ليس بعيدا عن قصره و يمارس ركوب الخيل و يقوم بجولات على ظهر الحصان. و هو مغرم أيضا بالبحر فيركب يخته المزود بكل وسائل الاتصال ليمخر به عباب البحر بين حين و آخر. و ليقضي في رحابه بعض الوقت و قد يحدث بسبب ذلك أن يبيت السلطان بعيدا عن الساحل أحيانا. و ثمة هواية أخرى للسلطان قابوس بن سعيد هي ولعه بالرماية باستخدام جميع أنواع البنادق. و هو من هذه الناحية يشبه أي عربي جبل على الفروسية و الجرأة و البسالة. و ربما كان من الصعوبة وصف هذا الجانب من طباعه بأنه مجرد هواية. فالموسيقى بالنسبة له لا تقل شأنا عن السياسة في واقع الأمر. وريمسكي كورساكوف, و بالدرجة الأولى الموسيقى الكلاسيكية, و أصاب الخلل مسار التوارث, فلم يبق بين العازفين سوى عدد قليل من القادرين على صون موسيقانا الكلاسيكية كحدقة العين. و نحن في عمان نحاول الحفاظ على التراث الموسيقي. و أنا لا استطيع أن أفضل اتجاها أو انتاجا على آخر. و يعجبني الكثير في موسيقى الهند و أفريقيا. الثقافة الموسيقية العمانية تطورت بتأثيرات من ثقافات كثيرة: الهند و بلوشستان و أفريقيا. و موسيقانا متنوعة للغاية و معبرة الى أعمق الحدود. و من حسن الحظ أن عمان حافظت تماما على تقاليد الأداء الموسيقي, فلدينا جوقات و أوركسترات لجميع الأنواع الأساسية: الموسيقى السيمفونية و العسكرية و الجاز و غيرها. و آمل أن كل هذه الجهود لتطوير الموسيقى ستؤدي الى بلوغ هدفي في النهوض بالمستوى الثقافي للشعب عموما و بمستوى التعليم الموسيقي خصوصا. و أتم بعضهم دورات تخصصية في مراكز موسيقية أوروبية ذات صيت عالمي خاصة في بريطانيا. كما أصدرت موسوعة الموسيقى التقليدية. و يمكننا أن نعتبر هذا المثل أحد المفاتيح الموصلة لفهم شخصية سلطان عمان. حقا فان معرفته أسمى منجزات الثقافة الانسانية و اطلاعه الواسع في ميدان الدين و التاريخ لا بد أن يخلقا حوله هالة نورانية فاضلة. ذلك أن الاتفاق على هذه الأغراض لا تمليه أبدا اعتبارات الربح و الخسارة. عندما تصادف السلطان هنيهة استجمام يلتقط العود و يعزف عليه ارتجالا. و في بعض الأحيان القليلة يعزف على الأرغن. و في حديث صحفي رد على سؤال عن القطعة الموسيقية التي لن يأسف اذا أخذها معه الى جزيرة خالية غير مأهولة قال السلطان انها الانشودة الرعوية السادسة لبتهوفنن. و هذا الاعتراف الموسيقي و أقوال السلطان الاخرى في شأن ذوقه الموسيقي تجعلنا نستنتج أننا أمام رجل متسق مع نفسه يعيش في وئام ذاته. الداخلية او الخارجية على حد السواء. و اذا شبهنا قائد الشعب بقائد الأوركسترا فان مهمته الفائقة الأولى هي الكشف التام على درجة استعداد كل فرد على الأداء و قدرته على التنفيذ. و هذا يتطلب فتح المجال واسعا أمام مبادرات الفنان و اجادة توجيه جهود كل فرد نحو تجسيد ابداعه الفني. و هو ترابط أشبه بالعلاقة في العائلة الكبيرة المتحابة المتوائمة. في مقابلة مع الصحفية البريطانية فيرونكا ماكلين قال السلطان قابوس انني أشعر بالمسئولية تجاه شعبي كله. و الشعب يتحسس طبيعته الجماعية بأفضل صورة من خلال الحاكم. و يعمل لصالحه قبل أن يطلب الشعب منه ذلك. و الشباب يشعرون بالملل من الملوك الطاعنين. فهم يعتقدون أنهم يفهمون كل الأمور على نحو أفضل, و لذا فالنظام لا يمكن ان يبقى جامدا. و مع أن الجميع هم أبناء شعب واحد, فليس كل منهم يستحق هذا الاسم بالمعنى الروحي السامي للكلمة. و لعله كان يشعر بتأنيب الضمير للسنوات الست التي أمضاها ولده كالسجين دون مبرر. و قد قرأنا الشهادة التالية في مذكرات نيل اينيس ناظر الخارجية السابق في عمان الذي التقى السلطان سعيد بن تيمور مرارا: تقبل الموقف بحكمة. و الحقيقة أن الأمر هو كذلك فعلا. فقد بعث سعيد بنت تيمور الى ابنه من لندن رسائل مفعمة بالرقة و المودة. و الدليل على المصالحة التاريخية بين الأب و ابنه هو مسجد سعيد بن تيمور الرائع في حي الخوير بمسقط الذي شيد بأمر السلطان قابوس. أما علاقات قابوس بن سعيد بوالدته فكانت دوما تتميز بالدفء و الحنان. و في أحلك السنوات بالنسبة له شدت السيدة ميززون أزره وساعدته بالكلمة الرقيقة المشاركة الصادقة, كي يتحلى بالقوة و الايمان بالمستقبل. لقد ظل عندما تسلم مقاليد الحكم يستمع الى نصائحها و يقدر غاية التقدير ذهنها الثاقب و وصايا العملية. و حين اختطفتها يد المنون في 12 اغسطس 1992 م كانت تلك فاجعة أليمة و خسارة عظمى بالنسبة للسلطان و شعبه. و على تلك الشواهد الآيات الكريمة: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي) سورة الفجر. و ينزل منها رجل بلحية قصيرة بيضاء تعرفها السلطنة بأسرها. كي يقف أمام قبرها خاشعا لا يعكر صفو حواره الصامت معها- هي التي رحلت الى الأبد – سوى همس الأمواج. و تتحدث اليه و يتحدث اليها, قبيل الفجر تسمع شقشقة آلاف الطيور على هامات النخيل في صلالة. ثم تبزغ الشمس على الحد الفاصل بين اليابسة و البحر. و ترسم أشعتها على صفحة الماء هياكل الكثير من قوارب الصيد. و هنا و هناك

Summarized by © lakhasly.com

تفور صفحة الماء فجأة, فآلاف الأسماك الصغيرة تقفز الى أعلى طلبا للنجاة من سمكة كاسرة كبرى, و ببطء شديد يزيح الجزر خط الساحل و يبعده تاركا على الرمال مختلف المأكولات للقطط و الطيور. و ليس من قبيل الصدفة أن يتحلى أهالي السواحل في أية بقعة من بقاع المعمورة بالخلق المتزن الهادئ و الاعتماد على النفس و الرصانة و التسامح. كان عرب عمان منفتحين على العالم من قديم الزمان. قوافلهم نقلت هبات الأرض الثمينة من مر و لبان آلاف الأميال في الصحارى و الجبال. و ألقت سفنهم مراسيها عند الشواطئ النائية التي تقطنها أجناس أخرى و تسودها حضارات أخرى. مثلما نفعل نحن الآن,

Summarized by © lakhasly.com